جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

عوامل الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية

الدكتور : محمد احمد جمال

الرياض

1407 هـ - 1987 م

عوامل الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية

الأستاذ محمد أحمد جمال*

أود أن نتساءل أولا: ما هو سبب الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية؟ ونتساءل ثانيا: لماذا كان الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية هو السبيل الميسر للغزو الفكري والخلقي الاجنبي في مجالات الاعلام، والتعليم والتربية والثقافة والاقتصاد، وفي البيئات الاجتماعية أيضا؟

الجواب على السؤال الأول: ان الاستعمار الفكري والسياسي الاجنبي، غربيا كان ام شرقيا، وان كان الغربي هو الغالب، هو السبب الرئيسي، أو هو المقدمة لكل النتائج التي اثرها فيما بعد من عقائد ومبادىء واخلاق وأفكار وشعارات.

الجواب على السؤال الثاني: ان هذه العقائد والمبادىء والاخلاق والأفكار والشعارات الوافدة ـ من غرب أو من شرق ـ كانت من السبل الممهدة لمزيد من الغزو الفكري والخلقي الأجنبي ربما كان اقوى اثرا، وأعمق رسوخا من سابقه الذي تسرب خلال الاستعمار السياسي والعسكري، ولنتسمع الى مايقوله بعض المفكرين والمؤرخين الغربيين انفسهم من مقاصد (الاستعمار) وآثاره في المجتمعات الاسلامية ـ عربية وغير عربية ـ

يقول برنارد لويس في كتابه **(الغرب والشرق الأسط)** ان ادخال القومية العلمانية الى الشرق الأوسط كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب بالاسلام في هذه المنطقة.

---

* جامعة أم القرى. مكة المكرمة

ويصف جيمس موريس في كتابه **الملوك الهامشيون** السياسة الاستعمارية الانجليزية بالغرور والشذوذ والخداع. حيث يقول: ان بريطانيا لم تف بوعدها للعرب الذي كانت كلمة الانجليزي عندهم ـ كما يقول المؤلف ـ رمزا للصمود والوفاء!

وتحضرنا هنا ونحن نتحدث بايجاز عن الاستعمار الانجليزي خطبة (**غلادستون**) في مجلس العموم البريطاني، التي اعلن فيها بمنتهى الصراحة والوقاحة قوله:

(لن يهدأ بال أوربا ما بقي القرآن في ايدي المسلمين، وما دام المسلمون يرعون اجتماع (**الجمعة**)بينهم، وما دام الأزهر معمورا بمدرسيه وطلابه في مصر، وما ظلت وفود الحجاج تهوي أفئدتها الى البيت الحرام في مكة.)!

وكموقف غلادستون الحاقد على الاسلام والعروبة في مجلس العموم البريطاني، وقف (**غوردو**) القائد الفرنسي الذي احتل سوريا، وأراد ان يشفي ظمأ طبيعته الحمقاء التي هزمها صلاح الدين الأيوبي شر هزيمة، قد ذهب غوردو الى قبر صلاح الدين وبصق عليه، وقال في بلاهة الشامت وجبن الحي الذي يتعالى على ميت: ها قد عدنا مرة اخرى رغم انفك، ياصلاح الدين، فانهض لترانا في سوريا!

ومثله القائد الانجليزي (**اللبني**) الذي قال عندما دخل القدس بعد هزيمة الأتراك، قال متهكما: (الآن. انتهت الحروب الصليبية).

ونعود الى ايجاز ما سود به التاريخ المعاصر صفحات الاستعمار الغربي للبلاد العربية أو الاسلامية، فنذكر ما كتبته الدكتورة زهيرة عابدين في تقرير لها سنة ١٣٨٤هـ عن الاستعمار الغربي لافريقيا. حيث قالت: ان المسلمين الأفارقة يعيشون في فقر وجهل وذل اجتماعي وذلك نتيجة للسياسة الاستعمارية الغربية التي دأبت على محاربة الاسلام، ونشر المسيحية، ووضع القيادات والرئاسات في دول افريقيا في أيدي المتنصرين من الأفارقة، أو المثقفين ثقافة غربية!

ويقول الاستاذ حافظ وهبه في كتابه (**خمسون عاما في جزيرة العرب**): ان الانجليز لا يهمهم الا مصالحهم، والأروبيون عامة لا يعملون الا لمصالح بلادهم، ثم يأسف الاستاذ حافظ وهبه اسفا شديدا على موقف الانجليز الغادر تجاه أصدقائهم من العرب الذين وقفوا الى جانبهم خلال الحرب العالمية الثانية

وفي كتاب (**الاسلام في التاريخ الحديث**) يقول مؤلفه ـ ولفرد كانتول ـ ان الاستعمار الغربي وجه كل اسلحته العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية لحرب الاسلام. وان الغرب خلق اسرائيل في قلب العالم الاسلامي كجزء من هذا المخطط.

وأروع ما في هذا الاعتراف والشهادات التاريخية عن الاستعمار السياسي والعسكري الغربي للعالم العربي أو الاسلامي، ما ينبه اليه المفكر الاسلامي أبو الاعلى المودودي رحمه الله حين يقول: ان كل الجرائم الاستعمارية التي ارتكبها الغرب في المجتمعات الاسلامية من بطش وتنكيل، واحتلال للأوطان واستغلال للانسان، لا تساوي ظلما ارتكبه الاستعمار الغربي حين فرض على هذه المجتمعات الاسلامية أنظمته التعليمية والتربوية الغريبة عن معتقداتنا وعاداتنا، فأنشأ بذلك اجيالا من شبابنا تنكرت لشخصيتها الاسلامية وابغضت دينها، واحتقرت تاريخها.

وقد اعترف القس (**زويمر**) في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م بان الاستعماريين الغربيين نجحوا في استبعاد التربية الاسلامية من جميع المدارس والجامعات العربية، ويجب ان لا ننسى ما أنزله الاستعمار الشيوعي المتمثل في روسيا بمستعمراتها في آسيا وافريقيا وشرق اوربا. من استبداد واستعباد وتشريد وتجويع وتعذيب ونفي وتنكيل وتقتيل. والشيوعيون يعادون الاسلام، ويحرصون على استعباد المسلمين لتحويلهم الى ماديين ملحدين، لأن الدين في معتقداتهم، افيون الشعوب، وشعار مذهبهم الشيوعي: (الا إله والحياة مادة).

وعلى اية حال فالاستعمار سواء أكان غربيا أم شرقيا: ملة واحدة في أهدافه ومقاصده وتحركاته المعادية للشعوب العربية والاسلامية. وان اختلفت الأساليب والأدوات والأفكار ومبادىء كل منهما عن الآخر، التي يتخذها من اجل الانتصار في غزوه الفكري والخلقي والعقدي لعالمنا العربي والاسلامي

وقد رأينا من مظاهر الاستعمار غير المباشر، وهو ما اطلقنا عليه (الغزو) الفكري والخلقي: المحاولات التي بذلها المستعمرون لاستبدال اللهجات العامية في البلاد العربية باللغة الفصحى، الدعوة الى استعمال الحروف اللاتينية في الكتابة والتدوين. كما فعل مصطفى اتاتورك في تركيا في اعقاب استيلائه على الحكم بعد انهيار الخلافة الاسلامية العثمانية اذ استبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

ومن ذلك تشجيعهم لدعوة القاديانية الباطلة الى ابطال فريضة الجهاد، وشغل المسلمين بدعوى مرزا غلام وما جاء به من قرآن جديد.

الى جانب ظهور مفكريهم بنظريات اغراقية عقيدة وخلقا. كالدارونية والفرويدية، والدوركايمية، والماركسية، وكلها تحويل وترجمة وصياغة جديدة لتعاليم اليهود في (تلمودهم) التي دبروها ليلهوا بها النصارى والمسلمين، ويتفوقوا عليهم حكما وعلما.

كذلك من صنائع الاستعمار غير المباشر: نشوء المذاهب الصوفية المغالية، والعقائد الدينية المنحرفة، المسماة (بالاسلامية) زورا وبهتانا. وقد فرقت شمل المسلمين اعتقادا وتعبدا واخلاقا.

وهناك الدعوات القومية العنصرية التي شجعها الاستعمار غير المباشر، وغذاها بلبانه الخبيثة، ففرق بين الأمة الاسلامية الواحدة بما بعث من دعاة القومية الفارسية، والعنصرية التركية، والقومية العربية، والاعتزاز بالفرعونية المصرية..

ويجب ألا ننسى هنا ونحن نتحدث عن الغزو الأجنبي الفكري والاخلاقي، ما بذل الاستعمار غير المباشر له كل جهده، وكثيرا من ماله،

خلال دعواته ومؤتمراته، وما أصدر من كتب وصحف ومجلات عربية الوجه غربية الاتجاه.

ذلك هو (تحرير المرأة) بزعم انها مظلومة، مهضومة الحقوق في المجتمعات الاسلامية. وما يجب من مساواتها بالرجل تعليما وتربية وتوظيفا في مثل أعماله ووظائفه دون اختلاف أو تفريق، وما تقتضيه هذه الحرية أو المساواة من سفورها واختلاطها بالرجال في المكاتب والمتاجر والاسواق والأندية وأماكن اللهو واللعب.

لقد اعترف المستعمرون انفسهم في المؤثرات التحضيرية التي كانوا يعقدونها في مصر والجزائر والقدس ولبنان والعراق ـ بأن (المرأة) عنصر فعال في تربية الأطفال، والمحافظة على عقيدتهم، فيجب كما تنادوا في مؤتمراتهم تلك، التركيز على العمل في المجتمعات النسائية للتعجيل باخراج الأجيال الناشئة من اسلامها عقيدة وخلقا. عن طريق تحرير المرأة من رباط الأسرة والتزامات الزوج والولد.

ونكتفي بمثل واحد من تأثر الساسة والمفكرين العرب بالدعوات الاستعمارية الغربية، فقد أثبت الاستاذ مصطفى أمين الصحافي المصري المعروف في كتابه (**من واحد لعشرة**) بأن الزعيم المصري (سعد زغلول) رفع الحجاب عن وجه ابنة الشيخ علي يوسف في احدى حفلات بيت الأمة فانطلقت السيدات الى تقليدها، ورفعن الحجاب عن وجوههن، وكرر سعد زغلول فعلته النكراء في احتفال كبير آخر اذ رفع الحجاب عن الآنسة فكرية حسني وهي تخطب، فصفقت الجماهير استحسانا، وأصبح ذلك كأمر من قائد الثورة بنزع الحجاب.

وظهر معه، في الوقت نفسه، قاسم امين فألف كتابيه (**تحرير المرأة، والمرأة الحديثة**) باغراء من سعد زغلول. ثم دعت الدعوة نفسها الأميرة عائشة بنت محمد الخامس سلطان المغرب، فرفعت النساء المغربيات المثقفات الحجاب عن وجوههن.

ويحضرنا هنا قول (**ارنولد توريني**) المفكر الانجليزي المعاصر: ان الشرقيين لشعورهم بعقدة النقص أمام الحضارة الغربية، ورغبتهم في ان

يصبحوا متحضرين على غرار الغربيين، اخذوا عنا كل شيء الفضائل والرذائل، وبذلك طغى عليهم الطابع الغربي، وتفككت ذاتيتهم.

ونلاحظ أن توريني قد أحسن الظن فقال عنا انا أخذنا من الحضارة الغربية (فضائلها) مع رذائلها، في حين ان الواقع يثبت انا اخذنا (رذائلها) فقط اذ لو اخذنا فضائلها ايضا لكان لنا مثل تقدمها العلمي صناعيا وزراعيا وعسكريا. ولكنا بقينا في هذه المجالات عالة على الغربيين والشرقيين معا الى اليوم وما زلنا في نظرتهم الينا دولا متخلفة وان كانوا يسموننا دولا (نامية) من قبيل المجاملة في الخطاب.

كما يحضرنا ـ ونحن نتحدث عن تأثرنا بالاستعمار غير المباشر الوصف الذي اطلقه زعماء التغيير على ربائبهم من المفكرين المثقفين المسلمين عربا وغير عرب، الذين تسلموا خلال الاستعمار السياسي والعسكري، وبعد الاستقلال أزمّة الحكم في بلادهم. فقد اطلقوا عليهم وصف (احجار في لعبة الشطرنج) يحركهم خبراؤهم القديرون من وراء الستار، كما يقول وليم غابي كار في كتاب له بهذا العنوان.

لقد بدأ الاستعمار الغربي المباشر ينحسر عن العالم الاسلامي بلدا بلدا ودولة دولة في اعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م) فتحررت منه سياسيا وعسكريا كافة الدول العربية: مصر والسودان والاردن وسوريا ولبنان والمغرب وتونس والجزائر وليبيا والكويت وقطر والبحرين وعمان وبقية دول الخليج واليمن الجنوبي ودول افريقيا الوسطى والجنوبية الخ.

وحتى (فلسطين) خرج منها الانجليز سنة (١٩٤٨)، ولكنهم سلموها لدولة اسرائيل المعتدية الظالمة وفاء منهم ـ **وبئس الوفاء** ـ بوعد بلفور سنة (١٩١٧م) لليهود باقامة وطن قومي لهم على تراب الأرض العربية المسلمة

أجل تخلص العالم الاسلامي والعربي من الاستعمار الأجنبي بقومياته المتعددة المختلفة من انجليزية وهولندية وايطالية واسبانية وغيرها.

لكن هذه (الفرصة) فرصة خروج المستعمرين الغربيين من الديار العربية والاسلامية، لم تتم. وكان الاستقلال أو التحرر من الاستعمار مزعوما أو موهوما

نعم. تخلصت الدول العربية والاسلامية من الاستعمار الأجنبي (المباشر) أي العسكري والسياسي، ودخلت في (استعمار) جديد باختيارها وطوعها. وكان الأول استعمارا اجنبيا بالحديد والنار. وكان يتمثل في سلطة مباشرة وسيطرة فعاله على سياسة البلاد العربية والاسلامية واقتصادها وتعليمها وتربيتها وكافة شؤونها الثقافية والفكرية والاجتماعية

اما الاستعمار الجديد. فقد كان عن طريق الفكر والعلم واللسان، وغير مناهج التربية والتعليم، ومن خلال المؤسسات الاعلامية اذاعة وصحافة وتلفاز.

تحت شعار التحالف المزعوم والصداقة المفتراه.

لقد تقبل قادة الثورات التحريرية في البلاد العربية والاسلامية ـ بعد فوزهم بالحكم والسيادة والسيطرة على مقاليد الأمور في شعوبهم وأوطانهم ـ تقبلوا واعتنقوا وارتضوا العقائد والمبادىء والأفكار التالية:

فكرة القومية والتعصب العنصري.

مبدأ العلمانية ـ فصل الدين عن الدولة

الاشتراكية الاقتصادية

ثم الشيوعية الخالصة

الى جانب المناهج والبرامج التعليمية والاعلامية الغريبة عن عقيدتهم الاسلامية، وخلقهم العربي الأصيل.

وكان هذا ـ في نظرنا ـ هو الأهم والأخطر نعني الاستعمار غير المباشر الذي تلقاه ورحب به الاستعداد الذاتي عند المسلمين انفسهم، وبخاصة قادتهم وكبراءهم المسيطرين على ازمة الحكم ومقاليد السياسة، والموجهين في ميادين الفكر والتربية والتعليم.

ان (الاستعداد الذاتي) لدينا للتقليد والاتباع والاندماج في بوتقة المخططات الاستعمارية، والتوجيهات الصهيونية، والمبادىء الشيوعية الملحدة، وبالتالي نقل المذاهب والأفكار والأخلاق الأجنبية الغازية الى مجتمعاتنا: من اسر ومدارس وجامعات ، وصحف ومجلات واذاعات هو

المسئول عمّا تعانيه المجتمعات العربية والاسلامية من بلاء.

وكانت هذه المنقولات أو المقتبسات ـ الغربية والشرقية ـ تقدم الى الشعوب الغافلة من قبل سادتها وكبرائها مغلفة حلوة موصوفة بأوصاف وأسماء اطلقوا عليها: التطوير، والتحرير، والتجديد، والتنمية، والتيسير، والعدالة الاجتماعية، والاشتراكية العربية.

أجل ان الاستعمار الذاتي هو الأهم والأخطر، فالاستعمار الخارجي بكل قواه العسكرية والاقتصادية عندما كان مسيطرا على الدول والشعوب العربية والاسلامية لم يستطع ان يجهز على (العروبة المسلمة) تماما. ولكن العرب انفسهم استطاعوا ان يساعدوه في الإجهاز عليها، بعد ان تحررت بلادهم من الاستعمار السياسي والعسكري المباشر، وتنادوا بأن دولهم أصبحت حرة مستقلة، وتغنوا بانهم اصبحوا سادة بلادهم واحرارا أعزاء.

اذن يجب الا نهتم بالاستعمار الأجنبي السابق، والا نضيع اعمارنا وأموالنا في شتمه ولعنه، وفي القاء الاتهام تلو الاتهام عليه بانه السبب الدائم لما يعانية العالم الاسلامي والعربي من انهيار فكري وخلقي.

كما ينبغي الا نشغل مؤتمراتنا وصحفنا ومجلاتنا وأجهزة اعلامنا، ومنابر مساجدنا. باللوم أو النقد لما سميناه (بالتيارات) الفكرية الهاجمة على المجتمعات العربية والاسلامية ـ من غرب وشرق ـ

فهذا وذاك كلاهما شبيه ـ في نظرنا ـ بما تفعله الندابات من عويل، ولطم للخدود، وشق للجيوب في جنائز الموتى او على قبورهم.

ولكن المطلوب بل المفروض على مؤسسات الأمن العام في المجتمعات العربية، ووزارات التربية والتعليم، وما يسمى بوزارات الثقافة والشباب، ووزارات الاعلام: ان تهتم بالاعداد للمستقبل اعني بتدارك الشباب العربي في مجالات التربية والتعليم والثقافة والاعلام والرياضة، وهو في مرحلته الخطيرة، مرحلة النمو والتلقي والاقتداء، وتوجيهه وجهة الخير والبر والتقوى، وابعاده عن المؤثرات والمغريات

الحضارية الوافدة أو الواردة من شرق أو من غرب. وتحصينه بثقافة اسلامية عميقة يستطيع ان يواجه بها ماسميناه الغزو الفكري والخلقي.

(فالشباب) هو أمل الانقاذ، ورجاء الخلاص مستقبلا لا حاضرا. لأن الحاضر ـ ممثلا في الكهول والشيوخ ـ لا يستطيع أن يقدم اكثر من النصائح والنذر والمناهج والمخططات.

وكذلك المؤتمرات والندوات التي يجتمع خلالها المهتمون بقضية الغزو الأجنبي فكريا واخلاقيا للمجتمعات العربية والاسلامية، هذه المؤتمرات والندوات لا تقدم اكثر من القرارات والوصايا بما يجب اتخاذه من عمل لاعادة البنيان العربي قويا صحيحا بعد انحصاره بسبب تلك الغزوات الأجنبية الفكرية والاخلاقية

أجل. لكي نعيد (الشخصية) العربية الاسلامية الأصيلة الى عقول المسلمين عربا وعجما، والى السنتهم ووجوههم وهيئاتهم، يجب ان نبدأ من الآن (بالشخصيات) ليبدلوا غدا ما نشكوه، ويحققوا ما نرجوه.

أما الكهول والشيوخ الذين تأثروا ـ باختيارهم أو رغما عنهم ـ بالحضارة الغربية والتفكير الشيوعي، وتمكن الغزو الفكري والخلقي الأجنبي من رؤوسهم وقلوبهم وجوارحهم، فلن تعود اليهم شخصيتهم العربية المسلمة مهما حضروا من مؤتمرات وندوات، ومهما سمعوا أو قرأوا من قرارات وتوصيات، أو نصائح ونذر.

ولا يسعنا ـ في الختام ـ الا ان نحيي المركز العربي للدراسات الأمنية تحية طيبة مباركة على جهوده المتتابعة من اجل تحقيق (الأمن العام) في البلاد العربية في كل مجالاته ومصادره وموارده.

ونلاحظ ان (المركز) ليس سعوديا فقط، بل هو (عربي شامل) ولذلك اتقدم اليه بالمقترحات التالية:

أولا: اصدار الكتب مشتملة على الأبحاث والدراسات القيمة لا يكفي لتطبيق قرارات الندوات والدورات التي يعقدها المركز، لذلك ينبغي

ان تبلغ خلاصات* عن هذه الدراسات والقرارات والأبحاث والدراسات الى رجال الأمن في الدول العربية، لينتفعوا بها في ممارساتهم الأمنية، ومعاملاتهم مع المواطنين.

ثانيا: ان المركز مطالب بابلاغ وزراء الاعلام في الدول العربية بنتائج أبحاثه ودراساته وقراراته الدورية حول (واقع) الاعلام العربي ـ اذاعة، وصحافة وتلفاز ـ وما طرح من آراء المفكرين والعلماء ـ خلال الدورات والندوات ـ لاصلاح الأوضاع الاعلامية العربية

ثالثاً: لأن المملكة العربية السعودية تمتاز بأنها ملتزمة بأحكام الشريعة الاسلامية، ولذلك تقل نسبة الأحداث الخلقية والجنائية فيها عن غيرها من المجتمعات العربية، ينبغي للمركز أن يسارع ـ بالتعاون مع الجامعات والمدارس ومؤسسات الأمن العام ـ الى تنفيذ مقررات الدورات والندوات أولا فأول.

---

* اضافة الى ان المركز يقوم تباعاً بابلاغ كافة الأجهزة العربية ذات العلاقة بالتوصيات والنتائج التي يحققها المركز من خلال أنشطته العلمية. فقد درج أيضاً على نشر "مختصر للدراسات الأمنية" يصدر سنويا، وقد صدر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء.